

ذكر الخصال التي سبب زوال دول الملوك وهدم سلطانهم
لابن المحق الموصلي كان حياً (٥٩٠ هـ/ ١٢٣٠م) دراسة وتحقيق
Theker Alkhesal Altee Sabab Zwall Dowal
AlMolook wa Hdim Sultanihim Libin Al Mohiq
AlMosulliy

was a life 590A.H/1230A.D study and revision

م.م مهدي محمد علي كصبان الجبوري

وحدة الدراسات الاستشرافية ، كلية الآداب ، جامعة الموصل

الاختصاص الدقيق:

Asst. Lect. Mahdee Mohamed Ali Gasban Al joboree

Oriental Studies Unit, College of Arts, Mosul

University

Specialization: Text Revision and Manuescript

Science

الملخص :

إن هذا البحث يهدف إلى تسليط الضوء على شخصية موصلية تكاد تكون مغمورة، هذه الشخصية لها مؤلفات وعاشت في القرن السادس الهجري يعد هذا البحث فصلاً من مخطوط "النصح في الدين ومآرب القاصدين في مواعظ الملوك والسلاطين" وهو مختصر من كتابه الآخر "منهاج السلوك في مواعظ الملوك" لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن المبارك بن رضوان المعروف بابن المحق الموصلية الذي كان حياً عام ٥٩٠ هـ / ١٢٣٠ م.

إنّ الدراسة أوصلتنا إلى ربط مصادر المؤلف بعضها ببعض والتي تسمى (روابط النصوص) والتي أشارت إلى أنّ هنالك مصادر رئيسية للمؤلف يمكن من خلالها الوصول إلى علاقة ربط بين تلك المصادر تقودنا إلى قرب الوصول من كاتبه المفقود منهاج السلوك، أو إمكانية التعرف إلى أسلوبه الناقل بالمقارنة بين كتابي سراج الملوك (محمد بن الوليد بن محمد ابن خلف الفهري الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي(٤٥١ / ٥٢٠هـ)، وكتاب ابن المحق الموصلية النصح في الدين ومآرب القاصدين في مواعظ الملوك والسلاطين

ABSTRACT

The research is target to support absent Mosul personal .He have publications and he live at 6th of the hegira .It is a chapter from manuscript " ALNOSOH FEE ALDEEN WA MAARIB AL QASDEEN FEE MAWAIDH ALMLOOK WA ALSALATEEN " that it is summarized from anther his book "MENHAJ ALSULOOK FEE MAWAIDH ALMLOK".

The study reaches to connect between references of author that its aimed there are another text may be nearest from the absent book of author " MENHAJ ALSOLOK ", or its perhaps to known his style to contrastive tradition between two books " SRAJ ALMOLOOK " and " ALNOSOH FEE ALDEEN WA MAARIB AL QASDEEN FEE MAWAIDH ALMLOOK WA AL SALATEEN".

المقدمة:

١- أهمية البحث

يعد هذا جزء من مخطوط النصح في الدين ومآرب القاصدين في مواعظ الملوك والسلاطين وهو مختصر كتاب منهاج السلوك في مواعظ الملوك لمؤلفه أبو عبد الله محمد بن المبارك بن رضوان المعروف بابن المحق الموصلية. حيث تعد هذه الشخصيات الموصلية القليلة الذكر بين المصادر واقرب ما تكون مغمورة هدفنا في البحث تسليط الضوء على هذه الشخصية.

٢- المنهج:

١. صحة نسبة النص إلى مؤلفه، من خلال الدراسة.
٢. ضبط المتن عن طريق مقابلة النسخ، بعد اعتماد أحسن النسخ وأقربها إلى المؤلف لاتخاذها النسخة الأم.
٣. إضافة بعض العناوين الجانبية لتقسيم النص وتوضيحه.
٤. تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.
٥. تراجم الأعلام - غير المشهورة - الموجودة في النص.
٦. توثيق النقول من أمهات الكتب.
٧. توضيح الغامض من الألفاظ، وتعريفها من كتب اللغة والقواميس العربية.

وصف النسخ:

أ- نسخة تركيا:

- ١- رقم الحفظ: ٢٦٠٢
- ٢- القياس: ٢٧ / ١٨ سم
- ٣- عدد الاوراق ١٣٩ لقطه = ٢٧٨ صفحة
- ٤- الأسطر ٣١ سطر
- ٥- الناسخ: محمد بن محمد بن أحمد السهوري الشافعي الأزهرري.
- ٦- تاريخ النسخ: يوم الاثنين من ذي الحجة سنة تسع وتسعمائة.

ب- نسخة معهد المخطوطات العربية، مصر- القاهرة.

- ١- رقم الحفظ: (ف ١١٨٣، من ٧٧٦ / ٩٧٦).
- ٢- القياس: ٢٧×٨١ سم.
- ٣- الأوراق: ١٩٩ لقطه = ٣٩٨ صفحة.
- ٤- الأسطر: ٢٧ سطر.
- ٥- الناسخ: عبد الحنفي.

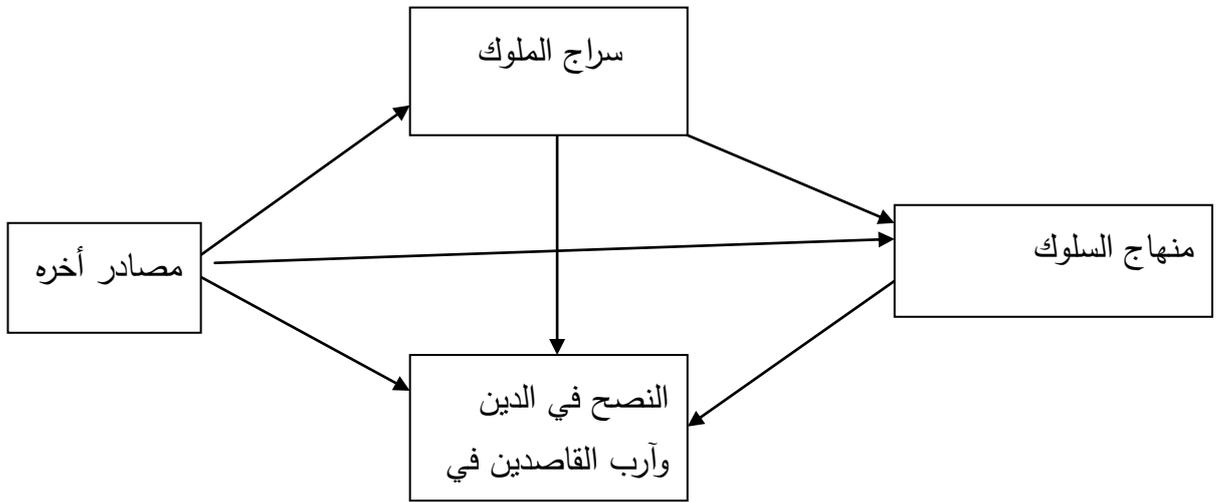
الدراسة:

يعد هذا البحث فصلاً من مخطوط "النصح في الدين ومآرب القاصدين في مواعظ الملوك والسلاطين" وهو مختصر من كتابه الآخر "منهاج السلوك في مواعظ الملوك" لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن المبارك بن رضوان المعروف بابن الحق الموصلي الذي لم تشر كتب السير والتراجم التي راجعناها إلى تاريخ ولادته ووفاته. والمتوافر لدينا ذكر المؤلف في نهاية المخطوط التي نحن بصدد تحقيق جزء منه أنه (وافق الفراغ من تصنيف الكتاب في رجب سنة تسعين وخمسمائة). وما يشير لنا أيضاً إلى

عصر المؤلف ما ذكره من معاصرته للخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي كان قد تولى الخلافة العباسية في سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

إنّ هذا البحث فيه من القصص والحكايات والعبير التي لها تأثير في حياة الإنسان لترشده إلى جادة الصواب والرجوع إلى سمات النفس النقية، لتبعدها عن كلّ شائبة أو دنس. ففيه من الموعظة والعبير ما يذكر بتقوى الله ومخافته. ومن الجدير بالذكر قدرة المؤلف على استخدامه مصادر متنوعة من أمات الكتب مع ذكرها ليقدم هذا المخطوط الكبير الشامل لإحدى وعشرين باباً متنوعاً للمواعظ والحكم.

إنّ الدراسة أوصلتنا إلى ربط مصادر المؤلف بعضها ببعض والتي تسمى (روابط النصوص) والتي أشارت إلى أنّ هنالك مصادر رئيسية للمؤلف يمكن من خلالها الوصول إلى علاقة ربط بين تلك المصادر تقودنا إلى قرب الوصول من كاتبه المفقود، أو إمكانية التعرف إلى أسلوبه الناقل بالمقارنة بين كتابي سراج الملوك (محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الفهري الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي (٤٥١ / ٥٢٠هـ))، والنصح في الدين وآرب القاصدين في مواعظ الملوك والسلاطين (لابن المحق الموصلي كان حي ٥٩٠هـ). تبين أنّ جميع هذه المصادر تصب في موضوع واحد هو تقويم سلوك الملوك ووعظها والمخطط الآتي يبين علاقة هذه المصادر بعضها ببعض:



مخطط علاقات النصوص

أبرز شيوخه :

١- أبو عبد الله الصوفي ، محمد بن عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف ، أخو أبي الحسين عبد الحق، وأبي نصر عبد الرحيم، وكان الأصغر منهما، ولد ببيزد سنة (٥٢٢ هجرية) ، ونشأ بها مع أبيه، وسمع بها من

أبي سعد إسماعيل بن أبي صالح المؤذن، وورد مع والده إلى بغداد فأسمعه من القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، وعبد الرحمن بن محمد القزاز، ومحمد بن عبد الملك بن خيرون، وأحمد بن محمد الزوزني، وغيرهم. وكان صوفياً استوطن الموصل إلى حين وفاته (٥٦٨ هجرية). سمع منه كتابي الصحيحين البخاري ومسلم .

٢- أبو عبد الله الحسين بن نصر بن محمد بن حسين بن محمد بن خميس، الجهني، الكعبي الموصلية، الملقب بتاج الإسلام مجد الدين، المعروف بابن الخميس الكعبي، ولد سنة (٤٦٦ هجرية)، حدث ببغداد والموصل، وتفقه على الإمام الغزالي وغيره، وكان شافعي المذهب، سكن الموصل حتى توفي سنة (٥٢٢ هجرية). له مصنفات كثيرة ومنها: "مناسك الحج"، "وتحريم الغيبة" و"مناقب الأبرار". وقد أحازه (الموطأ للإمام مالك بن أنس، والجامع للإمام الترمذي، وكذلك جميع موسوعاته، ومصنفاته).

٣- والده: أبو بكر بن المبارك بن رضوان. أخرجه مناقلة سنن أبي داود السجستاني، ومسند الإمام أحمد بن حنبل قرأه عليه.

صلة ابن الحق الموصلية بالموصل: هو موصلية الأصل كما ورد اسمه في صفحتي الغلاف لمخطوطة تركيا ومخطوطة معهد المخطوطات العربية، وكذلك من خلال شيوخه الذين توفوا في الموصل.

النص المحقق:

اعلم وفقك الله الملك ينبغي له أن يكون مجتهداً في أفكاره غير متغافل عن أخباره. ويكون خير أب مؤل عماله، فإن المسيء يفرق من خبرتك به قبل أن تصيبه عقوبتك، والمحسن يستبشر بعلمك به قبل أن يأتيه ثوابك. وقال أبو جعفر المنصور: ما زال أمر بني أمية مستقيماً حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصداً للشهوات وإيثار اللذات، والدخول في معاصي الله تعالى وأمناً لمكره، فسلبهم الله تعالى العز ونقل عنهم النعمة.

قال عبيد الله بن مروان، ومروان هذا هو المعروف بمروان الحمار، وهو آخر ملوك بني أمية قتل في أرض مصر في كورة بوسير: لما زال ملكنا وهربت إلى أرض النوبة فيمن تبغي من أصحابي، فسمع ملك النوبة بخبري ففقد على الأرض ولم يقعد على فراش افترشته، فقلت له: ألا تقعد على ثيابنا؟ قال: لا. قلت: ولم؟ قال: لأني ملك وحق على كل ملك أن يتواضع لله سبحانه إذا رفعه، ثم قال لي: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم، ولم تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ فقلت: زال عنا الملك فقل أنصارنا وانتصرنا بقوم من الأعاجم دخلوا ديننا، ولنا عبيد وأتباع فعلوا ذلك على كره منا، فأطرق ملياً يقلب كفيه وينكت في الأرض، ثم قال: ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم، وظلمتم في ما ملكتم فسلبكم الله تعالى العز بذنوبكم، والله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يجلب بكم العذاب وأنتم بيلدي فيصيبني معكم، وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزودوا ما احتجتم إليه وارحلوا عن بلدي.

وسئل بزرجهر^(١): ما بال ملك آل ساسان صار إلى ما صار إليه، بعدما كان فيه من قوة السلطان وشدة الاعوان والأركان؟ فقال: ذلك لأنهم قلدوا كبار الأعمال صغار الرجال. وعن هذا قالت الحكماء: موت ألف من العلية أقل ضرراً

من ارتفاع واحد من السفلة. وفي الأمثال: زوال الدول باصطناع السفل. وقال الشافعي رحمه الله: أظلم الناس لنفسه، من إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل. قال وسئل بعض الملوك بعد زوال ملكه: ما الذي سلبك ملكك؟ قال: بإعطائنا من ابطروا ضعف ورفع عمل اليوم إلى الغد. وسئل بعض الملوك بعد أن سلبوا ملكهم: ما الذي سلب عزكم وهدم ملككم؟ فقال: شغلنا الدنيا ولذاتنا عن التفرغ لمهماتنا ووثقنا بكفافتنا، فأثروا مرافقهم علينا، وظلم عمالنا رعيتنا فانفسدت نياتهم لنا وتمنوا الراحة منا، وحمل على أهل خراجنا فقتل دخلنا وبطل عطاء عبيدنا، فزالت الطاعة منهم لنا، وقصدنا عدونا فقتل ناصرنا، وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الأخبار عنا. وقالت الحكماء: أسرع الخصال في هدم السلطان وأعظمها في إفساده وتفريق الجمع عنه إظهار المحاباة لقوم دون قوم، والميل إلى قبيلة دون قبيلة، فمتى أعلن بحب قبيلة فقد برئ من قبائل. وقديماً قيل: المحاباة مفسدة. وقال مهبوز الموبدان: من زوال السلطان تقرب من ينبغي أن يباعده، ومباعدة من ينبغي أن يقرب وحيثذ حان أو ان الغدر. وقيل للملك بعد زوال ملكه: ما الذي أذهب ملككم؟ قال: ثقني بدولتي واستبدادي بمعرفتي، وإغفالي استشارتي وإعجابي بشدتي وإضعافتي الحيلة في وقت حاجتي والتأني عند عجلتي. ولما أحيط بمروان الجعدي وهو آخر ملوك بني أمية. قال: يالغفاه على دولة ما نصرت وكف ما ظفرت ونعمة ما شكرت! فقال له خادمه بسيل وكان من أشرف أولاد الروم: من أغفل الصغير حتى يكبر والقليل حتى يكثر، والخفي حتى يظهر أصابه مثل هذا. وسئل بعض العلماء: ما الذي ذهب بملك بني مروان؟ قال: تحاسد الأكفء وانقطاعها. وذلك أن يزيد بن عمر كان يجب أن يضع من نصر بن سيار وكان لا يمهده بالرجال، ولا يرفع إلى السلطان ما يورد عليه من أخبار خراسان، فلما رأى ذلك نصر بن سيار^(١) قال:

[الوافر]

أرى خلل الرماد وميض نارفيوشك أن يكون لها ضرام
وإن النار بالعودين تذكي وإن الحرب أولها الكلام
فقلت تجاهلاً: يا ليت شعرياً أيقاظ أمية أم نيام

وكان العباسيون يؤسسون لدولتهم ولا تصل أخبارهم إلى بني أمية، حتى استفحل أمرهم وضعف أمر بني أمية. وسئل مروان بن محمد الجعدي وهو آخر ملوك بني أمية: ما الذي أضعف ملكك بعد قوة السلطان وثبات الأركان؟ فقال: الاستبداد برأيي، لما كثرت علي كتب نصر بن سيار أن أمدهبالأموال والرجال، قلت في ومن أعجب العجائب دوام الملك مع الكبر والإعجاب! اعلموا أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل، لأن الكبير يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة، والمتكبر يجلب نفسه عن رتبة المتعلمين، والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين، وحسبك من رذيلة تمنع من استماع النصح وقبول التأديب، فالكبير يكسب المقت ويمنع من التألف، وكل كبير ذكره الله تعالى في القرآن فمقرون بالشرك، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس: أنهاك عن الشرك بالله والكبير كأنه يحتجب في تعصب منهما. وقال أزدشير^(٢) بن بابك: ما الكبر إلا فضل حمق لم يدر صاحبه أين يذهب به فصرفه إلى الكبر. وقال الأحنف

بن قيس^(٤): ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه، ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه. قال الشاعر^(٥):
[الطويل]

فتى كان عذب الروح لا من خصاصة ولكن كبراً أن يقال به كبر

فنظر أفلاطون إلى رجل جاهل متعجب فقال: وددت أني مثلك في ظنك وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. وقالت الحكماء: وقد يدوم الملك مع معظم النقائص، فرب فقير ساد قومه ورب أحمق ساد قبيلته. منهم الأقرع بن حابس الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ذلك الأحمق المطاع وقالوا: لا يدوم الملك مع الكبر، وحسبك من رذيلة تسلب السيادة. وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين، فقال سبحانه وتعالى: { تِلْكَ الدَّائِرَةُ الَّتِي جُعِلَ لَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ غُلُوبًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا } (القصص: ٨٣)، فقرن الكبر بالفساد فمنعنا من دخول الجنة. وقال عز وجل: { سَاءَ صِرْفٌ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } (الأعراف: ١٤٦)، وقال بعض الحكماء: ما رأيت متكبراً إلا تحول داؤه في عيني أني أتكبر عليه. واعلم أن الكبر يوجب المقت، ومن مقتته رجاله لم يستقم حاله، ومن أبغضته بطانته كان كمن غص بالماء، ومن كرهته الحماة تناولت إليه الأعداء. وأما الإعجاب فيحمله على الاستبداد بالرأي وترك مشاورات الرجال. ومن الصفات التي لا تقوم معها المملكة: الكذب والخلف والحسد والحدة والبخل والجبن، فإنه إذا كان كذاباً لم يوثق بوعده ولا بوعده، فلم يرج خيره ولم يخف شره، ولا يهأء لسلطان لا يرهب. وقالت الحكماء: خراب البلاد وفساد العباد مقرونان بإبطال الوعد والوعيد من الملوك، والكذب أسقط الأخلاق وأغلب شيء على صاحبه، وأحرى أن لا ينزع عنه لضرأوته. وقيل لأعرابي: لم لا تكذب؟ قال: لو تعززت به ما تركته وهو نوع من الفحش وضرب من الدناءة، وأصله استعذاب المنى وهو أضغاث فكر الحمقى. ومن بليته أنه يحمل على صاحبه ذنب غيره، وإذا سمعت كذبة نسبت إليه. وقال الشاعر:

[مجزوء الكامل]

حسب الكذوب من المهانة بعض ما يحكى عليه

فإذا سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه

وقال غيره:

[مجزوء الكامل]

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة

من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليلة^(٦)

وقال الله تعالى: { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } (النحل: ١٠٥).

وأما الحسد فإنه إذا كان حسوداً لم يشرف أحداً، وإذا ضاعت الأشراف هلكت الأتباع ولا تصلح الناس إلا على أشرفهم. وقال الشاعر:

[البسيط]

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهمولا سراة إذا جهالهم سادوا^(٧)

وأما البخل فإذا كان بخيلاً لم يناصحه أحد ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة، وليس للملك أن يبخل لأن بيوت الأموال في يديه. وأما الجبن فإنه إذا كان جباناً اجتراً عليه عدوه وضاعت ثغوره، وإذا كان جريئاً غضوباً والقدرة من ورائه هلكت الرعية. وليس للملك أن يغضب لأن القدرة من وراء حاجته. ولما دخل أسقف نجران على مصعب بن الزبير فكلمه بشيء أغضبه، ضرب وجهه بالقضيب فأدماه، فقال الأسقف: إن شاء الأمير أخبرته بما أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام فلا يغضب بعدها. قال: هات! قال: لا ينبغي للإمام أن يكون سفيهاً ومنه يلتمس الحلم، ولا جائراً ومنه يلتمس العدل. وقال الأوزاعي^(٨): يهلك السلطان بالإعجاب والاحتجاب. فأما الإعجاب فقد ذكرناه، وأما الاحتجاب فهو أدخل الخلال في هدم السلطان وأسرعها خراباً للدول، فإنه إذا احتجب السلطان فكأنه قد مات، لأن الحجب موت حكمي فتعبت بطانته بأرواح الخلائق وحريمهم وأمواهم، لأن الظالم قد أمن أن لا يصل المظلوم إلى السلطان. ومعظم ما رأينا في أعمارنا وسمعنا من دخول المفاسد على الملوك في حجبهم عن مباشرة الأمور، ولا تزال الرعية ذا سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم، فإذا احتجب فهناك سلاطين كثيرة. يا أيها المغرور المحتجب، احتجبت عن الرعية بالحجاب والأبواب، وجعلت دوتهم جبلاً مشيدة وحظائر بالحجارة والماء والطين مانعة، وباب الله مفتوح للسائلين ليس هناك حاجب ولا بواب. قال الله تعالى: {إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا} (الفرقان: ٥٧). وقال معاوية: ليس بين أن يملك السلطان رعيته أو تملكه إلا الحزم أو التواني، وكماله أمران: شدة في غير إفراط ولين في غير امتهان.

وسئل بزجمهر: أي الملوك أحزم؟ فقال: من ملك جده هزله وقهر لبه هواه، وأعرب عن ضمير فعله، ولم يحدده رضاه عن سخطه ولا غضبه عن كيده. وقال بعض الحكماء: زوال الدول في اصطناع السفلى، ومن طال عدوانه زال سلطانه. وقالوا: من لم يستظهر باليقظة لم ينتفع بالحفظة. وقال يحيى بن خالد: أحسن ما وجدت في طراز الحكم من البلاغة: البخل والجهل مع التواضع خير من السخاء والعلم مع الكبر. فيا لها حسنة غطت على سيئتين، ويا لها سيئة غطت على حسنتين!

وقد اتفقت العلماء والحكماء عليها فقالوا: أيها الملك إن قصرت قوتك عن عدوك فتخلق بالأخلاق الجميلة التي ليس لعدوك مثلها، فإنها أنكأ فيه من الغارة الشعواء. وقد روي أن معاوية قال لصعصعة بن صوحان^(٩): صف لي عمر بن الخطاب. فقال: كان عالماً برعيته عادلاً في قضيته، عارياً من الكبر قبولاً للعدو، سهل الحجاب مصون الباب متحرياً للضواب، رفيقاً بالضعيف غير محابي للقوي ولا يجاف للقريب.

قالوا: فالمنفعة توجب المحبة والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العداوة والمتابعة توجب الإلفة، والصدق يوجب الثقة والأمانة توجب الطمأنينة، والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة، والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة، والكبر يوجب المقت والتواضع يوجب الرفعة، والجلود يوجب الحمد والبخل يوجب المذمة، والتواني يوجب التضييع والجد يوجب رجاء الأعمال، والهويناء توجب الحسرة والحزم يوجب السرور، والتغريب يوجب الندامة والحذر يوجب العذر، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة.

وبالتأني تسهل المطالب وبلين كنف المعاشرة تدوم المودة، وبخفض الجانب تأنس النفوس وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبعدل المنطق يجبر الخلل وبالنصفه تكثر المواصلة، وبالإفضال يعظم القدر وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤمن يجب السوود وبال حلم على السفیه تكثر أنصارك عليه، وبالرفق والتؤدة يستحق اسم الكرم، ويترك ما لا يعينك يتم لك الفضل. واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة والفظاظة تخلع صاحبها ثوب القبول ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم، ومن سكت سلم ومن خاف حذر، ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم، ومن فهم علم. ومن أطاع هواه ضل، ومع العجلة الندامة ومع التأني السلامة. زارع البر يحصد السرور، وصاحب العاقل مغبوط، وصاديق الجاهل تعب. إذا جهلت فاسأل وإذا زلت فارجع، وإذا أسأت فاندم وإذا ندمت فاقلع، وإذا فضلت فكنم وإذا منعت فاجمل، وإذا أعطيت فأجزل وإذا غضبت فاحلم. من بدأك بيره فقد شغللك بشكره. المروءات كلها تبع للعقل. الرأي تبع للتجربة. والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة. والتوفيق أصله العقل وثمرته النجاح، والتوفيق والاجتهاد زوجان، فالاجتهاد سبب والتوفيق ينجح بالاجتهاد. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩)، والأعمال كلها تبع للمقدور.

واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب، من التوراة: من قنع شبع، ومن الزبور: من سكت سلم، ومن الإنجيل: من اعتزل نجاً، ومن القرآن: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١). الحلم شرف والصبر ظفر، والمعروف كنز والجهل سفه، والأيام دول والدهر غير، والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله. اصطناع المعروف يكسب الحمد. أكرموا الجليس يعمر ناديك. أنصفوا من أنفسكم يوثق بكم. إياكم والأخلاق الدنئة فإنها تضيع الشرف وتهدم المجد. نهنه الجاهل أهون من حريرته. رأس العشييرة يحمل أثقالها. وأجمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات قالوا: لا تحمل ظهرك ما لا يطيق، ولا تعمل عملاً لا ينفعك، ولا تغتر بامرأة، ولا تثق بمال وإن كثر.

وقد قيل أن ملك فارس قال للموبدان^(١): موبذ ما شيء واحد يعز به السلطان؟ قال: الطاعة. قال: فما ملاك الطاعة؟ قال: التودد إلى الخاصة والعدل على العامة. قال: صدقت! الأمانة معقل الطاعة والطاعة زينة الملة. وكان يقال: طاعة السلطان على أربعة أوجه: الرغبة والرغبة والمحبة والديانة. ولما دخل سعد العشييرة^(٢) على بعض ملوك حمير، قال له: يا سعد ما صلاح الملك؟ قال: معدلة شائعة وهيبه وازعة ورعية طائعة، فإن المعدلة حياة الأنام وفي الهيبه يضيء الظلام، وفي طاعة الرعية التألف والالتئام. طاعة الأئمة فرض على الرعية. وطاعة السلطان مقرونة بطاعة الله. اتقوا الله بحقه والسلطان بطاعته. من إجلال الله إجلال السلطان عادلاً كان أو جائراً.

الطاعة تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين. عصيان الأئمة يهدم أركان الملة. أولى الناس بطاعة السلطان ومناصحته أهل الدين والنعم والمروءات، إذ لا يقوم الدين إلا بالسلطان ولا تكون النعم والحرم محفوظة إلا به. الطاعة ملاك الدين. الطاعة معاهد السلامة وأرفع منازل السعادة، والطريقة المثلى والعروة الوثقى وقوام الأمة، وقيام السنة بطاعة الأئمة. الطاعة عصمة من كل فتنة ونجاة من كل شبهة. طاعة الأئمة عصمة لمن لجأ إليها وحرز لمن دخل فيها. ليس للرعية أن تعترض على الأئمة في تدبيرها وإن سولت لها أنفسها، بل عليها الانقياد وعلى الأئمة. الاجتهاد بالطاعة تقوم الحدود تقوم الحدود

وتؤدى الفرائض، وتحقن الدماء وتأمين السبل. الإمامة عصمة للعباد وحياة للبلاد، أوجبها الله لمن خصه بفضلها وحمله أعباءها فقرنها بطاعته وطاعة رسوله، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } (النساء: ٥٩). طاعة الأئمة هدى لمن استضاء بنورها وموئل لمن حافظ عليها. الخارج عن الطاعة منقطع العصمة بريء من الذمة، مبدل بالكفر النعمة. طاعة الأئمة حبل الله المتين ودينه القويم، وجنته الواقية وكفايته العالية. إياكم والخروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة وعليكم بالإخلاص والنصيحة. ما مشى قوم إلى سلطان ليدلوه إلا أذلهم الله قبل أن يموتوا. الطاعة مقرونة بالمحبة. طاعة المحبة أفضل من طاعة الهيبة. للرعية على السلطان الاستصلاح لهم، والتعهد لأموهم وحسن السيرة فيهم والعدل عليهم، والتعديل بينهم. وحق السلطان عليهم الطاعة والاستقامة والشكر والمحبة، بالرعية من الحاجة إلى الراعي ما ليس بالراعي من الحاجة إليهم لولا الرعاة هلكت الرعية، ولولا المسيم هلكت السوام.

وقد قيل أن سليمان بن داود عليهما السلام قال: الرحمة والعدل يحرزان الملك. وقال زياد: ملاك السلطان ثلاثة أشياء: الشدة على المذنب ومجازاة المحسن وصدق القول. ولما غزا سابور ذو الأكتاف ملك الروم وأحرب بلاده، وقتل جنوده وأفنى بطارفته، قال له ملك الروم: إنك قد قتلت وأخرت فأخبرني ما الأمر الذي تثبت به حتى قويت على ما أرى، وبلغت في السياسة ما لم يبلغه ملك؟ فإن كان مما يضبط الأمر بمثله أدت إليك الخراج وصرت كبعض الرعية في الطاعة لك. فقال له سابور: إني لم أزد في السياسة على ثمان خصال: لم أهزل في أمر ولا نهي، ولم أخلف في وعد ولا وعيد، ووليت أهل الكفاية، وأثبت على الفناء لا على الهوى، وضرت للأدب لا للغضب، وأودعت قلوب الرعية المحبة من غير جراءة والهيبة من غير ضغينة، وعممت بالقوت ومنعت الفضول، قال فأذن وأدى الخراج.

وكتب الوليد إلى الحجاج أن يكتب إليه بسيرته، فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنت هواي، وأدريت السيد المطاع في قومه ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفى لأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسه قسماً يعطيه حظاً من نظري ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى البطر والمسيء، فخاف المذنب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب. وقال أبو عبيدة: إذا كان الملك محصناً لسره بعيداً من أن يعرف ما في نفسه، متخيراً للوزراء مهيباً في أنفس العامة، متكافئاً بحسن البلاء، لا يخافه البريء ولا يأمنه المجرم، كان خليقاً بقاء ملكه. وجاء في الخبر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (أخاف على أمتي من أعمال ثلاثة فقالوا وما هنَّ يا رسول الله قال: زلة عالم وحكم جائر وهو متبع)^(١٢)، وقد ورد في الكتب السالفة أنه ليس شيء لتغيير نعمة وتعجيل نقمة أقرب من الإقامة على الظالم.

قال وذكر الظلم في مجلس ابن عباس رضي الله عنه فقال كعب: قرأت في الكتب المنزلة أن الظلم يخرب الديار. فقال ابن عباس أنا أوجدكم في القرآن (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا) (النمل ٥٢). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (خمسة غضب الله عليهم إن شاء أمضى غضبه عليهم في الدنيا و إلا فتواهم في الآخرة إلى النار : أمير قوم يأخذ حقه من رعيته و لا ينصفهم من نفسه و لا يدفع الظلم عنهم و زعيم قوم يطيعونه و لا يساوي بين القوي و الضعيف و يتكلم بالهوى

و رجل لا يأمر أهله و ولده بطاعة الله و لا يعلمهم أمر دينهم ولا يبالي ما أخذوا من دنياهم وما تركوا ورجل استأجر أجيرو فاستعمله ولا يؤتية أجره و رجل ظلم امرأة مهرها^(١٣).

ويحكى عن عمرو بن العاص أنه قال أسد خصوم خير من سلطان ظلوم و سلطان ظلوم خير من فتنة تدوم. قيل كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استعمل عاملاً فإذا قدمت عليه الرفقة من ولايته ومن تلك الناحية فيقول لهم كيف أميركم؟ أيعود المملوك والمريض أيشيع الخباز أيجالس المساكين كيف باله ألين هو؟ فإن وصفوه بهذه الأشياء تركى وإلا عزله. وقال وهب بن منبه إذا همَّ الوالي بالجوهر وعمل به ادخل الله النقص في أهل مملكته، حتى الأسواق والأرزاق والزرور والضرور وكل شيء، وإذا همَّ بالخير وعمل به أدخل الله البركة على أهل مملكته. كذلك وقال سفيان الثوري من تبسم في وجه ظالم أو وسع له أو نال من عطائه فقد قطع عري الإسلام وكان من أعوانهم .

وقيل لبعض الحكماء أي الناس أحق بالملك؟ قال أحسنهم سياسة وأرفقهم بالرعية وألزمهم بالسنة النافعة. قال بعض السلف إذا انقضت الدولة ذهب الرأي وضعفت الحيلة. وعن حصين بن عبد الرحمن قال بلغني أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلاة كلها مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكاد يخل فكان عمر بن الخطاب يتفقدته إذا غاب فعشقتة امرأة من أهل المدينة فذكرت ذلك لبعض نساءها، فقالت لها ألا احتال لكي في إدخاله عليك، قالت افعلي قالت: فقعت له في الطريق فلما مرَّ عليها قالت له إني امرأة كبيرة السن ولي شاة ولست أستطيع أن احلبها

فلو تثوبت الثواب ودخلت فحلبتها قال فدخل الفتى فلم يرى شاة فقالت: ادخل البيت حتى آتيك بما فدخل فإذا امرأة خلف الباب فغلقت عليه الباب فلما رأى ذلك عمد إلى محراب في البيت فقعد فيه فراودته عن نفسه فأبى وقال اتقي الله أيتها المرأة فجعلت لا تكف عنه ولا تلتفت إلى قوله فلما أبى صاحت في الناس فدخلوا عليها فقالت: إن هذا دخل عليّ وراودني عن نفسي قال فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه فلما صلى عمر رضي الله عنه الغداة فبينما كذلك إذ جاؤو به في وثاق، فلما رآه عمر قال: اللهم لا يخلف ظني فيه. ثم قال مالكم قالوا استغاثت امرأة في الليل فحجنا فوجدنا هذا الغلام عندها فلنا منه بضرب واوثقناه . فقال له عمر رضي الله عنه أصدقيني، فأخبره بالقصة وما قالت له العجوز فقال عمر أتعرفها إن رأتها؟ قال: نعم. فأرسل عمر إلى إتيان جيرانها وعجائزهم فجاء بهم فعرضهم عليه فجعل يقول لا اعرف حتى مرت به العجوز فقال يا أمير المؤمنين هذه ، فرفع عمر عليها الدرة ثم قال أصدقيني فقضت عليه كما قص الغلام ، فقال عمر: الحمد لله الذي جعل فينا مثل يوسف أو قال شبه يوسف عليه السلام ثم أقام السياسة.

وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال سألت الخادم الذي كان يقوم على رأس الحجاج بن يوسف الثقفي فقلت له أخبرني عن أعجب شيء رأيت من حكم الحجاج؟ قال كان ابن أخته أميراً على واسط، قال وكانت بواسط امرأة يقال أنها كانت من أهل بيت كبير وعصبة وأنه لم يكن بواسط أجمل ولا أحسن منها في ذلك الوقت. فأرسل إليها ابن أخت الحجاج يراودها على نفسها مع خادم له فأبت عليه وكان لها أخوة، فأرسلت إليه تقول له إن أردتني فخطبني من أخوتي؟ قال: وكان أخوتها أربعة قال فأبى الأمير وقال لا إلى هكذا وأنفذ يعاودها فأبت عليه إلا أن يخطبها فأما حرام فلا، قال فأبى هو إلا الحرام. فأرسل إليها بمديفة فأخذتها فعزلتها وأرسل إليها عشية جمعة أي آتيك الليلة فقالت لأما إن الأمير

بعث إلي بكذا وكذا، فأنكرت أمها ذلك وقالت أمها لإخوتها إن أحتكم ذكرت كذا وكذا. قال: فأنكروا وكذبوا قالت إنه قد أوعدني أنه الليلة يأتيني فسترونه، قال: فقعدوا إخوتها في بيت خال حيال البيت الذي هي فيه وفيه سراج وهم يرون من يدخل إليها وجارية لها على باب الدار قاعدة حتى جاء فنزل عن دابته وقال لغلامه: إذا كان المؤذن في الغلس^(٤) فأتني بدابتي ودخل فمشت الجارية بين يديه فقالت له ادخل وهي على سرير مستلقية عليه فاستلقي على إلى جانبها ثم وضع يده فقال إلى كم ذا المطل، فقالت له كفف يدك يا فاسق فدخل أخوتها عليه ومعهم السيوف فقطعوه ثم لفوه في نطع وجاءوا به إلى سكة من سلك واسط والقوه فيها. وجاء الغلام بالدابة فجعل يدق الباب دقاً رقيقاً وليس يكلمه أحد فلما خشى الصبح وأن تعرف الدابة انصرف، واصبحوا فإذا هم به مطروحاً فجاءوا به إلى الحجاج فقال عليّ بمن كان يخدمه، قال فأبى بذلك الخصي الذي الرسول فقالوا بينهم هذا كان صاحب سره. فقال له الحجاج: ويلك ما حال ابن أختي وما قصته؟ فأبى أن يقر بحاله، فقال له الحجاج إن صدقتني لم أضرب عنقك وإن لم تصدقني فعلت بك وفعلت، فأخبره الأمر على جهته فأمر بالمرأة وأمها وإخوتها فجيء بهم. فعزلت المرأة عنهم فسألها فأخبرته بجميع القصة من ذلك، قال: إخوتها نحن صنعنا به الذي ترى. قال: فعزّ لهم وأمر برقيقه ودوابه وماله وكل قليل وكثير هو له فدفعه للمرأة فقالت المرأة عندي هديته التي وجّه بها إليّ فقال لها الحجاج بارك الله لك فيها وأكثر في النساء مثلك هي لك وكلما ترك من شيء فهو لك قال: فأعطاها جميع ما ترك وخلا عنها وعن إخوتها. قال: إن مثل هذا لا يدفن بالقوه للكلاب فألقي على المزبلة فأكلته الكلاب. ودعي بالخصي وقال: أما أنت فقد قلت لك أي لا أضرب عنقك وأمر بضرب وسطه. فإذا الحجاج مع ظلمه وفتكه عمل بالعدل والإنصاف في حق ابن أخته ولم يسعه إقامة العذر له في الفساد ومقته إياه على ما أجرتم وفرط في جنب الله تعالى ، فماذا يجب على من لم يفعل الظلم ويجب العدل وقد عرف به فرحم الله من اعتبر وضرب هذه الأمثال لنفسه وارتمم.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال أي لا أحب أن أهدر دم أحد من المسلمين. وأنه أتى يوماً بفتى أمرد قد وجد قبلاً ملقى على ظهر الطريق، فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف على خبره ولم يعرف له قاتل، فشق ذلك على عمر رحمه الله. قال: اللهم أظفري بقاتله حتى إذا كان رأس الحول أو قريباً وجد صبي مولود وملقى بموضع القتل فأتني به إلى عمر رضي الله عنه. قال: ظفرت بدم القاتل إن شاء الله تعالى فرفع الصبي إلى امرأة وقال لها قومي بشأنه وخذي منا نفقته وانظري من يأخذه منك فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلميني بمكانها. قال: فلما شبّ الصبي وطاب جاءت جارية فقالت إن سيدتي بعثتني إليك لتبعثين بالصبي لتراه وترده إليك، قالت نعم اذهبي إليها وإني معه. قال: فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت بيت سيدتها، فلما رآته أخذته فقبلته وضمته إليها، وإذا هي امرأة شيخ من الأنصار من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرت عمر خبر المرأة. فاشتمل عمر على سيفه ثم أقبل عمر إلى منزلها، فوجد أباها متوكماً على باب داره، قال له عمر: يا أبا فلان ما فعلت ابنتك فلانة؟ قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هي أعرف الناس بحق الله وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها. قال عمر: قد أحببت أن ادخل إليها فأزيدها رغبة في الخير وأحدثها على ذلك. قال الشيخ جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين. قال: أمكث مكانك حتى

أرجع إليك فاستأذن عليها، فلما دخل أمر كل من كان عندها فخرجوا عنها وبقيت هي وعمر في البيت ليس معهما أحد، فكشف عمر عن سيفه وقال: لها لتصدقيني وكان عمر لا يكذب فقالت على رسلك يا أمير المؤمنين على أصح خبر وقعت فوالله لأصدقن، إن عجوز كانت تدخل علي فاتخذتها أمماً وكانت تقوم بأمرى مثل الوالدة فكنت لها بنت فأمضت بذلك حيناً ثم قالت يا بنيّة أنه قد عرض لي سفر ولي بنت أتخوف عليها أن تضع وقد أحببت أن أضمرها إليك حتى أرجع من سفري. قال: ثم عمدت إلي ابن شاب أمرد فهيأته كهية الجارية وأتتني به ولا أشك أنه جارية مثلي فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية، حتى أغفلني يوماً وأنا نائمة فما شعرت حتى علاني وخالطني فمددت يدي إلى شفرة كانت إلى جنبي فضربته بها فقتلته ثم أمرت به فألقي حيث وجدت فاشتملت منه بهذا الصبي فلما وضعته ألقىته في موضع رأيته. فهذا والله خبري يا أمير المؤمنين وخبرتهما على ما أعلمتك. قال لها عمر رضي الله عنه: صدقت بارك الله فيك ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج من عندها. فقال لأبيها بارك الله في ابنتك وقد وعظتها وأمرتها، فقال له الشيخ وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك.

وقد قيل أفضل الملوك من كان شركة بين الرعايا، لكل واحد منهم فيه قسطة، ليس أحد أحق به من أحد، لا يطمع القوي في حيفه ولا ييأس الضعيف من عدله. كان النبي صلى الله عليه وسلم تأخذ بيده اليمنى الأمة من إماء المدينة، فتطوف به على سكك المدينة حتى يقضي حاجتها. وفي حكم الهند: أفضل السلطان من أمنه البريء وخافه المحرم، وشر السلطان من خافه البريء وأمنه المحرم. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمغيرة لما ولاه الكوفة: يا مغيرة ليأمنك الأبرار وليخافك الفجار. وفي حكم الهند أيضاً: شر المال ما لا ينفق منه وشر الإخوان الخاذل، وشر السلطان ما خافه البريء، وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن، وخير السلطان من أشبه النسر حوله الجيف لا من أشبه الجيفة حولها النسور؛ وعن هذا المعنى قالوا: سلطان تخافه الرعية خير لهم من سلطان يخافها.

وفي الأمثال العامة: رهبوت خير لك من رحمت. وكان يقال: شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء والقسوة على الضعفاء والبخل عند الإعطاء. وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: ثلاثة من المقافر: جار ملازم إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لستتك وإن غبت عنها لم تأمنها، وسلطان إن أحسنت لم يحمدك وإن أسأت قتلك. وقال رجل لبعض الحكماء: متى أضل وأنا أعلم؟ فقال: إذا ملكتك أمراء، إن أطعتهم أدلوك وإن عصيتهم قتلوك. وقال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك: السلطان سوق ما نفق عنده أتى به. وفي كتاب ابن المقفع: الناس على دين الملك إلا القليل، فإن يكن للبر والمروءة عنده نفاق، فسيكسد بذلك الفجور والدناءة في آفاق الأرض. وسمع زياد رجلاً يذم الزمان فقال: لو كان يدري ما الزمان لعاقبته، إن الزمان هو السلطان.

وقال معاوية لابن السكوي: صف لي الزمان. فقال: أنت الزمان إن تصلح يصلح، وإن تفسد يفسد. والمثل السائر في كل زمان وعلى كل لسان: الناس على دين الملك. وقال بعض الحكماء: إن أحق الناس من يحذر العدو الفاجر والصديق الغادر والسلطان الجائر. وقال بزرجمهر: أدمو التعب صحبة السلطان السيئ الخلق. وقال بعض الحكماء: إذا ابتلت بصحبة سلطان لا يريد صلاح رعيتيه، فقد خيرت بين خيرتين ليس بينهما خياراً: إما الميل مع الوالي على الرعية وهو هلاك

الدين، وإما الميل مع الرعية على الوالي وهو هلاك الدنيا، فلا حيلة لك إلا الموت أو الهرب منه. وقالوا: الملك العادل كالنهر الصافي، ينتفع به الأخيار والأشرار ولا يضر أحداً، والملك السوء مثل الجيفة، يسرع إليها شرار الحيوان ويتحاماها خيار الناس.

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن)^(١٥)؛ معناه يدفع. وقال كعب: مثل الإسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد، فالفسطاط الإسلام والعمود السلطان، والأطناب والأوتاد الناس، لا يصلح بعضها إلا ببعض. قال أزدشير لابنه: يا بني إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أس^(١٦) والملك حارس، ومن لم يكن له أس فمهذوم، ومن لم يكن له حارس فضائع. يا بني اجعل حديثك مع أهل المراتب وعطيتك لأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين وسرك لمن عناه ما عنك، وليكن من أهل العقل. وكان يقال: الدين والسلطان توأمان.

وأما الخصال التي هي جامعة لأمر السلطان وبها انتظام الملك:

قالت الحكماء: أن ظفر الملك بعدوه على حسب عدله في رعيته، ونكوبه في حروبه على حسب جوره في عساكره، وإصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود. وقالوا: تاج الملك عفافه وحصنه إنصافه، وسلاحه كفافه وماله رعيته. وقالت حكماء الهند: لا ظفر مع بغي ولا صحة مع نهيهم، ولا ثناء مع كبر ولا شرف مع سوء أدب، ولا بر مع شح ولا اجتناب محرم مع حرص، ولا ولاية حكم مع عدم فقه ولا سؤدد مع انتقام، ولا ثبات ملك مع تماون وجهالة وزارة. ولما ولي أبو بكر رضي الله عنه خطب فقال: أيها الناس إنه لا أحد أقوى عندي من المظلوم حتى آخذ له بحقه، ولا أضعف من الظالم حتى آخذ الحق منه. وقيل للاسكندر: بم نلت ما نلت؟ قال: باستمالة الأعداء والإحسان إلى الأصدقاء.

وقال بزرجمهر: سواء سواء أحرار الناس بمحض المودة، والعامية بالرغبة والرغبة، والسفلة بالمخافة. وقال الموبدان: السياسة التي فيها صلاح الملك الرفق بالرعية، وأخذ الحق منهم في غير مشقة، وسد الفروج وأمن السبل، وأن ينصف المظلوم من الظالم ولا يحمل القوي على الضعيف. وقالوا: الوالي من الرعية كالروح من الجسد لا حياة له إلا بها، وكالرأس من الجسد لا بقاء له إلا به، وبعد الوالي من إصلاح الرعية مع إفساد نفسه كبعد الجسد من البقاء بعد ذهاب الرأس. والسلطان خليق أن يعود نفسه الصبر على من خالف رأيه من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم، ولا ينبغي أن يحسد الولاة إلا على حسن التدبير، ولا أن يكذب لأن أحداً لا يقدر على استكراهه، ولا أن يغضب لأن الغضب والقدرة لقاح الشر والندامة، ولا أن يبخل لأنه أقل الناس خوفاً من الفقر، ولا أن يحقد لأن قدره جُلُّ عن المجازاة، ولا ينبغي للوالي أن يستعمل سيفه فيما يكتفي فيه بالسوط، ولا سوطه فيما يكتفيه بالحبس، ولا حبسه فيما يكتفي فيه بالجفا والوعيد.

وقال معاوية: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا مدوها خليتها وإذا خلوها مددتها. ونحو هذا قول الشعبي: كان معاوية كالجمل الطب، والجمل الطب هو الحاذق بالمشي لا يضع يده إلا حيث تبصر عينه. وينبغي له أن يعلم رعيته أنه لا يصاب خيره إلا بالمعونة له على الخير، ولا ينبغي له أن يدع تفقد لطيف أمور الرعية اتكالا على نظره في جسيمها، فإن للضعيف موقعا ينتفع به. وقد أتى الله

ملك الدنيا سليمان بن داود عليهما السلام، ثم تفقد الطير فقال: ما لي لا أرى المهدهد؟ لأن التهوان باليسير أساس الوقوع في الكثير. وقد قال الشاعر^(١٧):

[المجتث]

لا تحقرن شيئاًكم جر شراً شبيب

وقالوا: أصل الأشياء كلها شيء واحد ولا يدع مباشرة جسم امره، فللجسيم موضع إن غفل عنه تفاقم، ولا يلزم نفسه مباشرة الصغير أبداً فيضيع الكبير. وقال زياد لحاجبه: وليتك حجابتي وعزلتك عن أربع: المؤذن للصلاة، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد سخنه فسد، وصارخ الليل لشر دهاه، وصاحب البريد فإن التهوان بالبريد ساعة يخرب عمل سنة. وكان أبو العباس السفاح يقول: لأستعملن اللين حتى لا ينفع إلا الشدة، ولأكثرن من الخاصة ما أنتهم على العامة، ولأغمدن سيفي حتى يسله الحق، ولأعطين حتى لا أرى للعطية موضعاً. وقال أزدشير لما كمل ملكه وأباد أعداءه: إنه لم يحكم حاكم على العقول كالصبر، ولم يحكمها محكم كالتجربة، وليس شيء أجمع للعقل من خوف وحاجة يتأمل بما صفحات حاله. وكان عمر يقول: إن هذا الأمر لا يصلح له إلا اللين في غير ضعف والقوة في غير عنف.

وقال الأصمعي: قال لي الرشيد: هل تعرف كلمات جامعات لمكارم الأخلاق، يقل لفظها ويسهل حفظها، وتكون لأغراضها لفظاً ولما قصدها وفقاً، تشرح المنبهم وتوضح المستعجم؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، دخل أكنم بن صيفي حكيم العرب على بعض الملوك، فقال له: إني سائلك عن أشياء لا تزال في صدري معتلجة، وما تزال الشكوك عليها والجة، فأنبئي بما عندك فيها. فقال: أبيت اللعن؟ سألت خبيراً واستنبأت بصيراً، والجواب يشفعه الصواب فسل عما بدا لك. قال: ما السؤدد؟ قال: اصطناع المعروف عند العشيبة واحتمال الجريرة. قال: فما الشرف؟ قال: كف الأذى وبذل النداء. قال: فما المجد؟ قال: حمل المعارم وابتناء المكارم. قال: فما الكرم؟ قال: صدق الإخاء في الشدة والرخاء. قال: فما العز؟ قال: شدة العضد وثروة العدد. قال: فما السماحة؟ قال: بذل النائل وحب السائل. قال: فما الغنى؟ قال: الرضا بما يكفي وقلة التمني. قال: فما الرأي؟ قال: لب تعينه تجربة. فقال له الملك: أوريته زناد بصيرتي وأذكيت نار خبرتي، فاحتكم. قال: لكل كلمة هجمة. قال: هي لك؟ قال الأصمعي: قال لي الرشيد: ولك بكل كلمة بدره. فانصرفت بشمانين ألف درهم.

وكان قس بن ساعدة يفد على قيصر فيكرمه، فقال له يوماً: ما أفضل العقل؟ قال: معرفة الرجل بنفسه. قال: فما أفضل العلم؟ قال: وقوف الرجل عند علمه. قابل: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه. قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قضى به الحقوق.

واعلم ارشدك الله أنه ليس شيء فوق أن تؤمن بتقوى الله تعالى ، ولا أحد دون أن يؤمر بتقوى الله، ولا أحد دون أن تأمر بتقوى الله، ولا أقل قدراً من أن يقبل امن الله ولا أرفع خطراً من أن يتعلم حكم الله، ولا أعلى شأناً من أن يتصف بصفات الله تعالى. ومن صفات الله تعالى: العلم الذي وصف نفسه وتمدح بسعته، فقال تعالى: { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } (البقرة: ٢٥٥). والكرسي هو العلم، والكراسي هم العلماء. وإذا كان العلم فضيلة فرغبة الملوك وذوي الأخطار والأقدار والأشراف والشيوخ فيه أولى، لأن الخطأ فيهم أقبح والابتداء بالفضيلة فضيلة. حكى أن إبراهيم بن المهدي دخل

على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه. فقال: يا عم ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر! فقال المأمون: لم لا تتعلم اليوم؟ قال: أويحسن مثلي طلب العلم؟ قال: نعم. والله لأن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل! قال: ومتى يحسن طلب العلم؟ قال: ما حسنت بك الحياة. وروي أن بعض الحكماء رأى شيخاً يطلب العلم ويحب النظر فيه ويستحي. فقال: يا هذا، أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله؟ لأن الصغير أعذر وإن لم يكن في الجهل عذر. وفي منثور الحكم: جهل الشاب معذور وعلمه محذور، فأما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه أفصح، لأن علو السن إذا لم يكسبه فضلاً ولم يقدم علماً، كان الصغير أفضل منه، لأن الأمل فيه أقوى. وحسبك نقيضة في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه. وكل ما ذكرنا من حاجة الشيخ إلى العلم فحاجة السلطان إليه أكثر، ودواعيه إلى اكتسابه أشد، لأن من عداه إنما يخصه نفسه الواحدة فيفوت عليه تحصيل ما يقومها به، والملك منتصب سياسة أهل مملكته وتعليمهم وتقويم أودهم، فهو إلى العلم أحوج، كما قال الشاعر^(١٨):

إذا لم يكن مر السنين مترجماً عن الفضل في الإنسان سميته طفلاً

وما تنفع الأعوام حين تعدها ولم تستفد فيهن علماً ولا عقلاً

أرى الدهر من سوء التصرف مائلاً إلى كل ذي جهل كائن به جهلاً

وقال بعض الحكماء: كل عز لا يوطده علم مذلة، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة. وكيف يستنكف ملك أو ذو منزلة عليه عن طلب العلم؟ وهذا موسى عليه السلام ارتحل من الشام إلى مجمع البحرين في أقصى المغرب على بحر الظلمات، إلى لقاء الخضر ليتعلم منه، فلما ظفر به قال: {هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا} (الكهف: ٦٦). هذا وهو نبي الله وكليمه. وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته من جميع خلقه، قد أوصاه ربه سبحانه وتعالى وعلمه كيف يستنزل ما في خزائنه، فقال: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} (طه: ١١٤). فلو كان في خزائنه أشرف من العلم لنبهه عليه. وهذا آدم عليه السلام لما فخرت الملائكة بتسبيحها وتقديسها لربها وفخر آدم بالعلم: {فَقَالَ أَنبِيُّنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة: ٣١). فلما عجزوا أمرهم بالسجود له. وأخلق بخصلة تستدعي السجود لحاملها أن يتنافس فيها كل ذي لب! وهذا فصل الخطاب لمن تديره.

ولا ينصب لك عذراً بما روي في بعض الأخبار مثل الذي يتعلم العلم في صغره كالنقش على الحجر، مثل الذي يتعلم العلم في كبره كالنقش على الماء. وسمع الأحنف رجلاً يقول: العلم في الصغر كالنقش في الحجر، فقال الأحنف: الكبير أكبر عقلاً ولكنه أشغل قلباً؛ ففحص عن المعنى ونبه على العلة. وقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسلمون شيوخاً وكهولاً وأحداثاً، وكانوا يتعلمون العلم والقرآن والسنن وهم بحور العلم وأطواد الحكم والفقه، غير أن العلم في الصغر أرسخ أصولاً وأسبق فروعاً، وليس إذا لم يحوه كله. قال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه: إني أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه! فقال أبو هريرة: كفى بتركك له تضييعاً. وبعض الخير من كل الشر. وإنما مثل الجاهل تحت عبء الجهل مثل الحمال تحت حمل ثقيل، فإن هو كلما أعيب نقصه قليلاً فيوشك أن ينقصه كله فيستريح منه، وإن هو لم يطرح القليل

حتى يطرح الكثير فما أوشك أن يصرعه حمله، فكذلك الجاهل إذا تعلم قليلاً قليلاً يوشك أن يأتي على بقيته، وإن لم يتعلم في الكبر ما فاتته في الصغر فأوشك به أن يموت تحت عبء الجهل!

هوامش البحث:

١. سهل بن هارون بن راهبون (أو راهيون) أبو عمرو الدستيمساني المتوفى سنة (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م) كاتب بليغ، حكيم، من واضعي القصص، يلقب (بزهر الإسلام) فارسي الأصل، اشتهر في البصرة، واتصل بخدمة هارون الرشيد، وارتفعت مكانته عنده، حتى أحله محل يحيى البرمكي صاحب دواوينه. ينظر: الاعلام: خير الدين الزركلي، ٦: ٣٦٨.
٢. نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة الكناني المتوفى سنة (٤٦ - ١٣١ هـ = ٦٦٦ - ٧٤٨ م) أمير، من الدهاة الشجعان. كان شيخ مضر بخراسان، وواليلخ. ينظر: الاعلام: الزركلي ٨: ٢٣.
٣. العبادي الواعظ المشهور: اسمه أزدشير. الوافي بالوفيات: الصفدي ٥: ٣٣٤.
٤. الاحنف بن قيس (٣ قه - ٧٢ هـ = ٦١٩ - ٦٩١ م) الاحنف (١) بن قيس بن معاوية بن حصين المرزي السعدي المنقري التميمي الاعلام: الزركلي ٢: ٣٥٦.
٥. البيت لأبي تمام الطائي: ديوانه ٤٢٥. وورد فيه:
فئ كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبيراً أن يقال به كبر
٦. الشاعر منصور الفقيه: ديوانه ٢٠٨.
٧. الافوه الاودي: ديوانه ٧.
٨. الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو أبو عمر من الاوزاع قبيلة وتوفي سنة تسع وخمسين ومائة. الفهرست: النديم ١: ٣١٨.
٩. صعصعة بن صوحان (... - ٥٦ هـ = ... - ٦٧٦ م) صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدى من سادات عبد القيس من أهل الكوفة الاعلام: الزركلي ٧: ٤٣.
١٠. الموبدان، أهمله الجوهري، وقال الصاغاني: هو بضم الميم وفتح الباء، وحكفتح الميم أيضاً، وحكى ابن ناصر كسر الباء أيضاً: فقيه الفرس وحاكم الجوس، كقاضي القضاة للمسلمين. تاج العروس: الزبيدي ١٠: ٤٧.
١١. سعد العشيرة بن مالك بن أدد، من كهلان، من القحطانية: جد جاهلي. الاعلام: الزركلي ٦: ٢٢١.
١٢. ضعيف الترغيب والترهيب: الألباني ٢: ٣٨. دار المعارف، الرياض. (الحديث ضعيف جداً).
١٣. ينظر الكبائر: محمد بن عثمان الذهبي ١: ١٠٤، دار الندوة الجديد، بيروت.
١٤. العَلَسُن: ظلمة آخر الليل. ينظر الصحاح في اللغة: الجوهري.
١٥. شرح سنن أبي داود: عبد المحسن العباد ١: ٢، جاء فيه أن القول لعثمان بن عفان رضي الله عنه.
١٦. الهمة والسين يدل على الأصل والشيء الوطيد الثابت، فالأصل أصل البناء، وجمعه أساس. مقاييس اللغة: ابن فارس ١: ١٦١.
١٧. البيت لابن الرومي: ديوانه (٢٢١ / ٢٨٣) وفيه: لا تحقرن سيباً كم جرّ نفعاً سيب
١٨. الشاعر مجهول